ليحكم رجال الأدب العربي

السباعي بيومي

يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي

للدكتور زكي مبارك

— ١ —

عرف قراء « الرسالة » أن الأستاذ السباعي توعدني بمقالتين خطيرتين : الأولى في تحديد ما قال في الشيخ المرصفي ، والثانية في دفع النظرية التي نبهها من كتاب النثر الفني ، وكان يرجو أن أنتظر إلى أن يفرغ من المقالتين المرتقبتين ، لعلي أعتبر فلا أجترئ عليه ، وقد شاع أني من كبار المجترئين !

وقد نشر مقالته الأولى ، فعرفنا أنه يصر على اتهام الشيخ سيد المرصفي بالغرور ، ولم يبق إلا أن ينشر مقالته الثانية ، وهي مقالة عرفنا مضمونها مقدماً ، فهو سيثبت أنه لم يسرق من كتاب « النثر الفني » وإنما سرق منه مؤلف « النثر الفني » فكان حاله حال اللص الذي رأى صاحب الدار يمشي من بعد فصاح : « مين اللي ماشي هناك ! »

وأنا لن أنتظر إلى أن يفرغ الأستاذ من تحبير مقالته الثانية ، فما كان أول باحث سرق من كتاب النثر الفني ، ولن يكون آخر باحث يسرق من كتاب النثر الفني ، فقد كتمتُ سرقته من كتابي أربع سنين ، لأني أشعر بالارتياح كلما تذكرت أن عندي ذخائر يتطلع إليها الناهبون من الفضلاء

لن أنتظر ، لن أنتظر ، فليواجهني إن استطاع ؛ وأنا ماضٍ إليه بقلم أمضى من السيف وأعنف من القضاء ، ولن أتركه بعافية أو يعترف بأنه يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي .

ولكن كيف جنى على المبرد وقد قضى شبابه في خدمة كتاب « الكامل » ؟

تلك هي النقطة ، كما يقول لافونتين !

اسمعوا كلمة الحق ، أيها الناس :

المبرد دان اللغة والأدب والنحو والتصريف والتاريخ الإسلامي بكتاب نفيس اسمه « الكامل » وهذا الكتاب قد شرق وغرب فانتقل من يد إلى يد ومن بلد إلى بلد على اختلاف الأجيال ، وبذلك تعرض للتصحيف والتحريف ، وإذاً كان من الواجب ألا يتقدم لنشره من أبناء العرب غير من يملك القدرة على إصلاح ما أفسدت تلك الأجيال

فهل يكون السباعي بيومي هو المصلح المنشود وما قال أحد بأن الله وهبه نعمة الذوق الأدبي ، وهي نعمة سامية لا يظفر بها من كل جيل غير آحاد ؟

كان المصلح المنشود لكتاب الكامل هو شيخنا العظيم « سيد بن علي المرصفي » الذي قضى من عمره عشرين سنة وهو يراوح المبرد ويغاديه بالنظر الثاقب والفهم العميق

ولكن المرصفي مات وصار من حق كل باغٍ أن يتقول عليه كيف شاء ، ولو كان في منزلة السباعي بيومي ، وهو كما وصف نفسه أستاذ بدار العلوم !

هل سمعتم أشياء من أقوال الدكتور طه حسين ؟

أتعب الدكتور طه نفسه في النيل من « دار العلوم » فكان يقول : هي مدرسة عاقر ، ومن الواجب أن تُغلَق بدون تسويف !

فهل غضب السباعي بيومي وهو « أستاذ بدار العلوم » كما ذيّل اسمه وهو يحاورني بمجلة الرسالة الغراء ؟

وكيف يغضب والدكتور طه رجل يضر وينفع ، وهو يملك المحو والإثبات في أعضاء بعض اللجان بوزارة المعارف ، والسباعي يطمع في أن يعيّن عضواً باللجنة التي تنقل كتاب « هانوتو » من الفرنسية إلى العربية ؟!

أما الشيخ المرصفي فهو اليوم جسد هامد لا يملك دفع الضر عن سمعته ولو صدر عن باغٍ في منزلة السباعي بيومي

الشيخ سيد المرصفي مات وشبع من الموت ، وهو اليوم لا يملك دفع عادية الذباب

مات المرصفي ثم مات ، ولكن تلاميذه أحياء ، والويل كل الويل لمن يتعرض لشيخنا العظيم بكلمة سوء ، ولو كان من أعز الأصدقاء

أيُشتَم المرصفي في مصر وهو قريع الزعشري والمبرد ؟

ألم يكف المرصفي أن يعيش غريباً ويموت غريباً ؟

لم يوجد في الأزهر من يدرك قيمة الشيخ سيد المرصفي غير الشيخ محمد عبده ، وبموت « الأستاذ الإمام » أصبح المرصفي من الغرباء

وقد عرف المصريون قيمة الشيخ محمد عبده بعد الموت ، فكيف يجهلون قيمة الشيخ سيد المرصفي بعد الموت ؟

السباعي بيومي هو الذي أراد الإعلان عن نفسه بالقدح في الشيخ المرصفي ، فليدفع ثمن ذلك الإعلان بلا إمهال

ولكن كيف يدفع ذلك الثمن ؟

إلى رجال الأدب العربي أسوق الحديث :

أخرج السباعي كتاباً سماه « تهذيب الكامل » في جزأين أولهما في المنثور وثانيهما في المنظوم ، ومعنى ذلك أنه قدّم وأخّر في نصوص الكامل ليقع المنثور في جانب والمنظوم في جانب . فهل يرى القراء أن هذا عملٌ مطلوب ؟ وهل يرون أن المبرد كان يمرّ عليه أن يصنف كتابه على هذا الوضع لو أراد ؟

المبرد راوَحَ بين المنثور والمنظوم لحكمة تعليمية ، هي نقل الذهن من فنّ إلى فنّ ليبعد عنه السآمة والملال ، وقد أضاع السباعي تلك الحكمة التعليمية بصنيعه « الجميل »

والفرق بين الكامل وتهذيب الكامل هو الفرق بين روح المبرد وروح السباعي ، فأنت حين تقرأ الكامل تواجه روحاً لطيفاً هو روح أبي العباس ـ طيب الله ثراه ـ وقد كان مثالاً رائعاً في صباحة الوجه ولطافة الروح ، وحين تقرأ تهذيب الكامل تواجه روح السباعي بيومي ، وهو روح السباعي بيومي بلا نزاع ولا جدال !

ومهما يكن من شيء فقد استطاع السباعي أن يطارد المرصفي ، المرصفي شارح الكامل ، المرصفي الذي أقام البراهين على أن مصر وُجِد فيها رجلٌ يصاول المبرد ، وعشي إليه مَشْيَ البازل إلى البازل في شراسة وكبرياء

استطاع السباعي أن يحرّم على شرح المرصفي دخول « دار العلوم » ليجهل طلبة تلك « الدار » أسرار كتاب الكامل ، وليجهلوا مبلغ أستاذهم السباعي من « العلم » بما وقع في « الكامل » من تحريف وتصحيف

أنا أعرف أن دار العلوم مدرسة عالية لا يزورها أحدٌ من المفتشين ، إلا إن ظمئ إلى فنجان من القهوة يحتسيه في مكتب العميد أو مكتب الوكيل ، وإذاً فمن العسير أن تسنح الفرصة لمحاسبة الأستاذ السباعي بيومي على ما يصنع في تكوين الطلبة بتلك الدار ، وهم الجيل المقبل من رجال التربية والتعليم

أعرف ذلك ، وأعرف أن الذوق نهاني عن زيارة دروس الأستاذ السباعي بالجامعة الأمريكية ، وأنا عن تفتيشها مسئول ، لأنه لا يجوز ذوقاً أن أفتش على مدرس رأته وزارة المعارف صالحاً للمشاركة في إعداد المدرسين

ولكن يظهر أن الأستاذ السباعي محتاج إلى من يعاونه على إعداد دروسه بدار العلوم ، فقد رأيت أنه لم يفطن إلى ما في كتاب « تهذيب الكامل » من تصحيف وتحريف قضى بهما انتقال « الكامل » من يد إلى يد ومن بلد إلى بلد على اختلاف الأجيال !

يضاف إلى ذلك أن كتاب « تهذيب الكامل » تسرّب إلى « كلية اللغة العربية » وقد يتسرب إلى « كلية الآداب » بحجة أن الدكتور طه حسين قرّنه بكتاب « مدامع العشاق » في أحد فصول « حديث الأربعاء »

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد النص على الأغلاط التي عجز عن إدراكها ذهن السباعي ، وفطن لها عقل المرصفي ، وهي أغلاطٌ ستؤذي السباعي أعنف الإيذاء ، لأنها ستقنعه بأن ثناء الدكتور طه حسين على صنيعه في كتاب خدمة الكامل لن ينجيه من عذاب النقد الأدبي ، وهو عذابٌ أليم

سأقوم بهذا الواجب خدمة لأبناء دار العلوم وخدمة لجميع طلاب الأدب العربي ، وعلى الأستاذ السباعي أن يناقشني إن استطاع ، وهو لن يستطيع ، ولو ظاهره ألوف من المعجبين بقدرته على الاستهانة بفضائل التدقيق والتحقيق

والأستاذ السباعي قد شتمني بمجلة الرسالة مرتين ، فليكف عن شتمي — غير مأمور — فإن الألسنة والأقلام لم تُبق في شتمي مزيداً لمستزيد ، ولو حاسبَ الله أعدائي وخصومي على ما اجترحوا آثمين في إيذائي لسلط عليهم شآبيب البلاء

لا تشتمني ، يا سيد سباعي ، فحسبي ما أعاني من البلوى بمحنة النقد الأدبي . ألا ترى أحاور أناساً لا أرتضيهم نسّاخاً لمقالاتي ومؤلفاتي ؟

لقد لامني الناصحون على ما اقترفت من التنازل إلى مساجلة بعض الناس ، فهل تعرف كيف كان جوابي ؟

لقد أجبت بأن الأدب كالعلم ، والعالم يشرّح جسم الضفدعة كما يشرّح جسم الإنسان ، فمن واجب الأديب أن يفهم أنْ لا عيب في أن يهتم بتشريح ما يضاف إلى الأدب ولو صدر عن نكرات

لا تشتمني ، يا سيد سباعي ، ولا تصفني بالغرور والاجتراء ، فلو أنك رأيت الدنيا بعيني لطاب لك أن تتخلّق مثل أخلاقي ، فما اغتررت ولا اجترأت إلا وأنا أعرف أن في الدنيا ناساً أخف وزناً من الهباء

لا تشتمني ، يا سيد سباعي ، فأنا رجلٌ « كتيم » وذلك حرفٌ لا يخفى عليك

لا تشتمني ، يا سيد سباعي ، فما أملك محاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي ، وماذا أقول في تجريحك ولستَ بشاعر ولا كاتب ولا مؤلف ولا خطيب ؟

ليس لك غير نقل نصوص « الكامل » من مكان إلى مكان ، فهل فهمت أسرار « الكامل » ؟ وهل « هذبت » أو « شذبت » تلك الغابة الشجراء ؟

ما أنت و « الكامل » أيها المفضال ؟ !

الأمر في ذلك لشيخنا العظيم سيد بن علي المرصفي ، الشيخ الذي ربانا على الصراحة والصدق والإخلاص ، وهو المنافس الأعظم للأساتذة الأماجد : محمد المهدي ومحمد الخضري وإسماعيل رأفت ومنصور فهمي وأحمد ضيف وطه حسين

أما بعد فقد آن للأستاذ السباعي أن يقرأ ما يرضيه ، وعليه أن يجيب ، إن كان يملك الجواب ، وهيهات ثم هيهات ! !

١ — في تهذيب الكامل ج ٢ ص ٢٦٢ قال الأخطل :

نازعتهم طيّب الراح الشمول وقد
صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

ولم يلتفت السباعي إلى التحريف في « نازعتهم » وقد التفت إليه المرصفي ، فنص على أن الصواب « نازعته » لأن الأخطل يقول قبل هذا البيت :

وشارب مربح بالكأس نادمني
لا بالحصور ولا فيها بسوّار

٢ — في تهذيب الكامل ج ١ ص ٣٨ ورد قول الشاعر :

إذا ما حقبٌ جالَ شددناه بتصدير

وهنا أتعب السباعي نفسه فأثبت في الهامش نقلاً عن المضاف إلى المتن أن هذا الشاعر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهذا خطأ ظاهر ، وإنما الشعر ليزيد بن ضبة الثقفي يمدح الوليد بن يزيد ، وقد أفضت إليه الخلافة « انظر تحقيق الشيخ المرصفي ج ١ ص ١٠١ من رغبة الآمل في شرح الكامل »

وعذر الأستاذ السباعي أنه غير مسئول عن التحقيق ، لأنه أستاذ بدار العلوم ! !

٣ — في تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣٠٧ قال المبرد : رُوي لنا أن رجلاً من الصالحين كان عند ابراهيم بن هشام فأنشد إبراهيم قول الشاعر :

إذا أنت فينا لمن ينهاك عاصيةٌ
وإذ أجرّ إليكم سادراً رسني

فقام ذلك الرجل فرمى بشق ردائه وأقبل يسحبه حتى خرج من المجلس ، ثم رجع على تلك الحال فجلس ، فقال له هشامٌ : ما بك؟ فقال : إني كنت سمعت هذا الشعر فاستحسنته فآليت أن لا أسمعه إلا جررت ردائي كما سحب هذا الرجل رَسَنه

والشاهد في كلمة «رجل من الصالحين » فقد أشفق الأستاذ السباعي نفسه بالنص في الهامش على أنه ابن أبي عتيق ، نقلاً عما أضيف إلى متن الكامل ، فهل سمع أحد أن ابن أبي عتيق كان يُعَدّ في الصالحين ومساعداته لعمر بن أبي ربيعة تشهد بأنه كان من أهل الخلاعة والمجون ؟ لا يُطلَب من السباعي فهم هذه الدقائق ، فلنرض بتحقيق الشيخ المرصفي وقد نقل أن ذلك الرجل الصالح هو أبو عبيدة بن عمار بن ياسر « رغبة الآمل ج ١ ص ١٥٥ »

٤ — في تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣٠٨ قال الشاعر :

فقلت له تجنّبْ كل شيء يعاب عليك إن الحرّ حرّ

ثم قال المبرد في التعقيب على هذا البيت : فهذا كلام ليس فيه فضلٌ عن معناه ، وقوله « إن الحر حرّ » إنما تأويله أن الحرّ على الأخلاق التي عهدنَ في الأحرار ، ومثل ذلك « أنا أبو النجم وشعري شعري » أي شعري كما بلغك وكما كنت تعهد ، وكذلك

عددنا السنوي الممتاز

سيصدر في اليوم الثالث من شهر مارس المقبل عددنا السنوي الممتاز حافلاً بجميل الشخصيات العظيمة والمواقف الكريمة في الفتوات النبوية والفتوح الإسلامية بقلم أعظم البيانيين في مصر والشرق العربي . وسيكونه بعونه الله على الرغم من سوء الأحوال الحاضرة جديراً بجمهور المرضوع وسمعة الرسالة .

قولهم « الناس الناس » أى الناس كما كنت تعهدهم

وتعقيب المبرد سديد ، ولكن الأستاذ السباعى ينقل فى الهامش أن من هذا قول الله عز وجل : « فغشيهم من اليمّ ما غشيهم » بدون أن يدرك أن الأخفش الذى نقل عنه قد أخطأ الفهم ، فالآية ليست مما اتحد فيه المبتدأ والخبر لفظاً ، وإنما هو موصول أسند إليه فعل جُعل مثله صلة ، للمبالغة فى التهويل (رغبة الآمل ج ١ ص ١٥٥) . وكان المأمول أن لا تغيب هذه المسألة البسيطة عن ذهن أستاذ بدار العلوم

٥ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣٠٩ تكلم المبرد عن الخيل المحبوكة الأصلاب فقال : « المحبوك الذى فيه طرائق ، يقال لطرائق الماء حُبك واحدُها حِباك » . وبهذا سها المبرد سهواً لم يفطن له السباعى ، فقد فسر الكلمة بما لا يراد منها فى تركيبها ، والصواب أن يقول : فالمحبوك الذى أُحكم خَلقه ، من حبكت الثوب إذا أحكمت نسجه ، يريد أن أصلاب الخيل موثقة مدمجة . ثم يقول : والمحبوك أيضاً الذى فيه طرائق (رغبة الآمل ج ١ ص ١٦١) وهو كتاب المرصفى المحكوم عليه بالغرور والادعاء ! !

٦ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٢١٢ ، أنشد المبرد قول حاتم الطائى :

إن الكريم من تلفّت حوله ... وإن اللئيم دائم الطرف أقودُ

وقد غيّر المبرد لفظ البيت وروايته ، بدون أن ينتبه السباعى لذلك ، والصواب :

فمنهم جوادٌ قد تلفّت حوله ... ومنهم لئيم دائم الطرف أقود

لأن حاتماً يقول قبل هذا البيت :

كذاك أمور الناس راض دنية ... وسام إلى فرعَ العلا متورد

« راجع رغبة الآمل ج ١ ص ١٧٧ »

٧ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣١٢ ورد قول الأشهب ابن رُمَيْلة :

أسود شرىً لاقت أسود خفية ... تساقَوا على حرد دماء الأساود

وقد تفضل الأستاذ السباعى فأثبت فى الهامش أن رميلة هى أم الشاعر ، ولم يتعب الأستاذ فى هذا التحقيق ، فقد نقله عما أضاف أبو الحسن إلى متن الكامل ، فكيف يجيب لو سأله أحد طلبة دار العلوم عن أبى هذا الشاعر وهو قد عرف أمه وجهل أباه !

الجواب عند الشيخ الرصفى « المغرور » فقد جاء فى رغبة الآمل ج ١ ص ١٧٩ أن أبا هذا الشاعر هو ثور بن أبى حارثة ابن عبد الدار

٨ — وفى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٩٢ ورد قول ابن الإطنابة

وإجشامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المُشيح

وسكت السباعى عن « الإطنابة » فلم نعرف أهو اسم أمّ الشاعر أم اسم أبيه ، وإنما سكت السباعى لأنه لم يجد ما ينقله عن أبى الحسن ، فليعرف إن شاء أن الإطنابة هى أم الشاعر ، أما أبوه فهو عامر بن زيد مناة أحد أشراف الخزرج « رغبة الآمل ج ٢ ص ٢٣ »

٩ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣١٥ قال رجل من بنى عبس يخاطب عروة بن الورد :

لا تشتمنّى يا ابن ورد فإننى ... تعود على مالى الحقوق العوائد

ومن يُؤثر الحق الثؤوب تكن به ... خصاصة جسم وهو طيان ماجد

وإنى امرؤٌ عافى إنائى شركةٌ ... وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحد

أُقسّم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قَراح الماء والماء بارد

والسياق الذى أورده الأخفش وغفل عنه السباعى يوهم أن الأبيات الأربعة من شعر ذلك العبسى ، والصواب أن العبسى لم يقل غير البيتين الأولين ، أما البيتان الأخيران فهما جواب عروة بن الورد ، وقد نقل الشيخ المرصفى (ج ١ ص ١٩٥) أن عبد الملك بن مروان كان يحفظ لعروة الأبيات الأخيرة ، وثانيها هذا البيت :

أتهزأ منى أنْ سمنتَ وأن ترى ... بجسمى شحوب الحق والحق جاهدُ

فإن ارتاب الأستاذ السباعى فى تصحيح الشيخ المرصفى فليرجع إلى ديوان الحماسة فى باب الأضياف والمديح ليرى هذه الأبيات الأخيرة منسوبة إلى عروة بن الورد ، والمفهوم أن ديوان الحماسة مما يحفظه الطلبة بمدرسة دار العلوم !

ثم أما بعد ، فهذا هو المنهاج الذى سنسلكه فى بيان فضل المرصفى على السباعى وعلى جميع من يقرأون الكامل للمبرد ، وسنرى فيما بعد غرائب وأعاجيب من غفلة السباعى عن فهم أغراض المبرد ، فكيف تراه يصنع ! هل يصرّ على القول بأن المرصفى كان رجلاً مغروراً ، وأن من الجريمة أن يدخل كتابه « دار العلوم » ليخلو الجوّ لمن تقوّتهم البسائط من الأغلاط ؟